

مريم العذراء ومسار التدبير الإلهي الخلاصي

الأب حبيب هرمز

المقدمة: هناك عدة مسارات في اللاهوت المريمي حول مساهمة مريم العذراء في خلاص الناس من خلال حرية إيمانها وطاعتها وكونها أداة لسر الفداء. يؤكد احدهما على دورها كأم للمسيح، والثاني على دورها كأم للكنيسة وكرمزا لها. بينما الثالث يهتم بدراسة اللاهوت المريمي ضمن مسار التدبير الإلهي مدبراً نوفاً.

البتولية: كرمت البتولية في العهد القديم والجديد. لكن بتولية مريم إشارة الى ان نظام الخلق القديم لم يعد ضرورة مع اقتراب ملكوت الله ودخول نظامه في العالم .

1- مريم أم المسيح: من المهم دراسة لاهوت المسيح. البحث في لاهوت مريم، لأنها أمه ولها دور في سر الكلمة المتجسد والجسد السري ولأن المسيح فادي، فهي شريكته في الفداء. ولأن المسيح هو وسيط، فهي وسيطة لجميع النعم. وما عقيدة الحبل بلا دنس إلا تعبير عن سابق إعداده مريم لتكون أم المسيح. فلا يمكن فصل الحبل بلا دنس عن قداسة مريم وإن نعمة المسيح التي هي مواهب في سر التجسد قد أعدقت عليها قبل تجسده من خلال إنتظارها هذا الرجاء المبارك وكما ادخل الله المجد الى العالم من خلال فقر وتواضع مريم، كذلك كان يسوع الإله المتجسد. إن شخص مريم هو علامة لناسوت الله الكامل في تجسده وهي تمثل تجسد لرحمة الله الخالق، الله المحبة.

كان الحبل البتولي ضرورياً لبنة يسوع الإلهية. وسر مريم هو مرتبط بسر الكنيسة التي بواسطتها صار ابن الله اخ الناس. وعندما سلم يسوع روحه، انتهى عمل الخلق والفداء، وتم خلق الكنيسة الجديد في الروح المرموز الى أمومتها في مريم، والى وحدتها في التضامن الروحي والمادي بين التلميذ الحبيب وبين مريم رغم اعتبار البعض إن مريم هنا هي رمز لشعب الله القديم الذي يجب ان تقبلهم الكنيسة بشخص التلميذ الحبيب.

2- مريم أم ورمز الكنيسة: أولاً، مريم هي عضو في الكنيسة، وما كان حضورها إجتماع الرسل والتلاميذ (أع 1: 14) عند حلول الروح القدس إلا دليلاً لنا لنؤكد ذلك " 14 هُوَ لَاءَ كُتْمُهُمْ كَانُوا يُوْاطِبُونَ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الصَّلَاةِ وَالطَّلْبَةِ مَعَ النِّسَاءِ وَمَرْيَمَ أُمَّ يَسُوعَ وَمَعَ إِخْوَتِهِ". ولكونها من ذرية آدم فهي متحدة بجميع الناس المحتاجين الى الخلاص. لذلك إفتداها المسيح منذ أول الحبل بها. هي عضو فائق لا مثيل له في الكنيسة. أما انتقالها الى السماء بجسدها ونفسها فهو يمثل افتتاح الكنيسة في الدهر الآتي، فهي والدة الكنيسة.

قد يبدو هذا الفهم مثالياً بإعتبار مريم خليفة بشرية جميلة قدسها الروح القدس، وكعضو في الجسد السري، وايضاً امرأة. فالتيار بعد المجمع الفاتيكاني الثاني في الستينات من القرن العشرين يقلل من ظهور الإقنوم الإلهي ومن قيمة أنجيل الطفولة، ويظهر مريم كإمرأة عادية.

يعتبر البابا جول بول الثاني، الشفاعة الدور الرئيسي لمريم، فهي أم الكنيسة كما قلنا. إن قصة المجوس صورة لوثنيين ترحب بهم الكنيسة من خلال مريم. هي أم البشر المدعويين للخلاص بيسوع المسيح، لأن الله يريد خلاص جميع البشر. وعند الصليب أيضاً صارت مريم رمز الكنيسة الأم ومتعلقة صوفياً بالمسيح، فهي رجاء الكنيسة بالقيامة الأخيرة وظهور ملكوت الله المجيد. بهذا الصدد يقول البابا: مريم أم الشعب الذي حلت عليه النعمة بفضل قيامة المسيح، وصار نواة الكنيسة.

إن سفر الرؤيا يعطينا صوراً تقارن بمريم. ففي صورة المرأة الملتحفة بالشمس، صورة الكنيسة الأم وريثة اسرائيل المجاهدة الوثيقة من النصر النهائي والتي تذكرنا في رمزها التاريخي بمريم أم العبد المتألم والمسيح الملك. وكذلك مع صورة المرأة التي اختطفها الله من هجمات الحية (رؤيا 12: 13-16).

عندما تشارك مريم في الصلاة مع الإثني عشر، فإنها تكشف عن رسالتها في الكنيسة. في مريم سر الكنيسة كونها عروس للمسيح. وهكذا تصبح أم المسيحيين لأنها بالتالي أم الرب وغذيته ومشاركة معه حتى بعد انتقالها الى السماء، وقوة في الإيمان والمحبة والإتحاد بالمسيح، ومثال للحب الأمومي الذي يجب أن يحيا به جميع الذين بإشتراكهم في رسالة الكنيسة الرسولية يعملان في سبيل ميلاد الناس ثانية. مريم هي حواء الجديدة واول وضوح لأمانة الكنيسة للفداء الإلهي.

3- مريم والتدبير الخلاصي: اهتم الآباء في البحث عن دور مريم في التدبير الإلهي. يبدو ذلك في كتاباتهم والطقوس التي رتبوها على مدار السنة، وفي تأملات الوردية أيضاً. لقد آمنوا بكونها أم الإله ثيوطوقس لذلك فهي تتدرج في التدبير الخلاصي. إن ما فعلته مريم هو دور محوري في تاريخ الخلاص.

يعتبر اللاهوت الحديث، مريم مشتركة في الخلاص أيضاً لأنها تقبل الخلاص لجميع بني البشر، لا بل حققت مخطط تجسد الله. ونظراً لحالتها الفريدة في تاريخ الخلاص، فإنها تكرم كوسيلة كل نعمة لأنها تعمله كخدمة، ولأنها من ذرية آدم، لذلك تعتبر مرتبطة بمجموع البشرية المفتقرة الى الخلاص.

إن خطة الله، حسب البابا بولس السادس، حددت بتدبير سابق فيه أصل مريم وتجدد الحكمة الإلهية. وهذا التدبير الخلاصي متعلق بالروح القدس في أصله وتطوره ونهايته. ومريم حملت الروح القدس، لذلك اقترح المجمع الفاتيكاني الثاني دمجها في الدستور الخاص بالكنيسة لإبراز شخصها ورسالتها في القصد الإلهي الشامل للخلاص. يجب أن نبقى أمناء للمجمع في إدراج السيدة مريم ضمن التدبير الخلاصي لإكتشاف سر أم الله في حقيقته، ويكون لها وعملها مكان في قلب السر المسيحي ذاته.

كما قلنا إن الله فكر بمريم منذ البدء. لدينا مبدأ أعلى حيث مريم أم الإله ثيوطوقس وحواء الجديدة اشركت في آدم الجديد في كل شيء. لأنها أم الإله (لمشاركتها في سر التجسد) فيليق بها أن تكون بلا دنس منذ الحبل بها، وذلك كإعداد أزلي لها لإمتلائها من النعمة، وأن ترفع الى السماء بجسدها ونفسها.

إذا لمريم صلة وثيقة بالخلاص، لأنه لا معنى لإمتيازاتها إلا بالنظر الى المسيح مركز التاريخ الخلاصي وغايته. ولا معنى لصلتها إلا بالنظر الى جسد المسيح والكنيسة. فالأمومة الإلهية تعبر عن دعوتها الفريدة بالنظر الى تدبير الخلاص. إضافة الى ذلك، فإنها ستكون أم المخلص موضوع إختيار. كما إن شعب إسرائيل أختير ليكون شعب الوعد، ومنه سيولد المسيح المخلص. هكذا أعدت مريم سابقاً لتصير أم الله. وهذا الإعداد هو مرحلة لمجيء المخلص وشرط مجيئه الى بشرتنا ليخلصنا. المخلص هو الذي جاء أول الأمر، وهو هدف إعداد الله السابق. إن هذه المشيئة الإلهية للخلاص تغمر مريم منذ البدء، فتسبق كل إمكانية أخرى، وهو إعداد المسيح السابق.

لو لم تكن مريم قديسة ومفتداة على وجه تام، لما كان المسيح نفسه كما هو في الحقيقة تجاهنا إرادة إلهية. عندما حضر اليها الملاك جبرائيل وجدها ممثلة نعمة. مريم إذا تخص حلقة إعداد المسيح السابق ذاته. وسر الإعداد السابق وحده يجعل للحبل بلا دنس معناه الخاص. لقد ظهرت نبوءة العهد القديم في اليصابات وزكريا. والروح الذي سيأتي على مريم ويتم سر التجسد هو أعظم روح سينزل أيضاً على الرسل ومريم، التي كانت معهم (اع 1: 8، 14).

مريم كانت بارة أصلاً كما كان آدم باراً قبل سقوطه. هي لم تسقط في الخطيئة، وابن الله الذي هو حكمة الله سكن بطريقة خاصة ليس فقط في نفسها بل في بطنها. لذلك يتم الإحتفال بعيد قداستها والحبل بها معاً يوم الحبل بها. دور مريم مرسوم في الوحي الكتابي. نشيدها الخالد هو انتقاء من المزامير ونشيد حنة (صم 2: 1-10) لذلك يعتبرها لوقا تجسيد لشعب الله.

لأن مريم ضمن التدبير الإلهي، فهي أم تجسد فقراء يهوه أي جزء من اسرائيل. والله يختار الضعفاء ليعلن قدرته، فظهرت عطيته في كل كيانها. لولا الإعداد الأزلي لما كانت بشيء. وكما أن ابراهيم كان اول مؤمن في العهد القديم، مريم هي أول مؤمن في العهد الجديد. لدينا إذاً الكثير من العلاقات والرموز بين العهدين بخصوص مريم. سنكتفي ببعضها ادناه:

- الزيارة التي قامت بها الى اليصابات، وفرح اليصابات تذكرنا بنقل تابوت العهد القديم، وفرح داود الملك أمامه.
- يبدو من نشيد مريم كونها إبنة صهيون وختام رجاء اسرائيل المسيحاني. فنشيدها مرتبط بنشيد إشعيا المسيحاني (إش 61: 10-11) واشادتها برحمة الله هو اتمام لنشيد حنة والمزمور 113 حيث ينهض الله المسكين من التراب.
- لقد ادخل الله المجد الى العالم من باب فقر وتواضع مريم. كذلك كان يسوع الإله المتجسد.
- تبدو مريم في نبوءة سمعان، صورة الشعب الإسرائيلي وصورة الكنيسة.
- إن ظهور وجه المرأة أم الفادي في العهدين منذ الوعد بالنصر على إبليس، وكون إتمام الأزمنة معها تظار الوعد، لهو بداية التدبير الجديد.

• إن تمثيلها بأبنة صهيون وأورشليم الجديدة هو اعتبارها أم المسيح ابن الله وهي رمز لشعب الله بالنسبة للمسيح أيضاً. هذا كي تحمل المسيح على قبول الخلاص الذي يفرضه الله عليه.

إن الإعداد لإنتقال مريم الى السماء يجمعها مع ابنها يسوع المسيح بإمتياز الحبل العجائبي والإنتصار على الخطيئة. يدخل ذلك ضمن التدبير الخلاصي لأنهما يشتركان في مصير واحد ايضاً، على الأرض وفي السماء؛ هي شاركت ابنها في الكيان البشري وهو اعطاها المشاركة في الكيان الإلهي .

الختام: إن مسيرة مريم العذراء من لحظة البشارة وحتى انتقالها الى السماء، هي رمز لمسيرتنا نحن عندما نعتد ونقبل المسيح في حياتنا حتى الصليب والرجاء بالقيامة. مريم كأم للمسيح هي أم للكنيسة أودعها الرب لدى يوحنا عند الصليب. هي مشاركة بفعالية في التدبير الإلهي لمصالحتنا مع الله بواسطة كلمته الأزلية المتجسدة. تدعونا اليوم الى الإقتداء بابنها وربها.